وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل الرابع

جاء "أحمد" ذات يوم يحمل إلى سلمى كتابا ضخما وقال:

- هذا أحد مؤلفات "لينين".. إنه يفيدك كثيرا في فهم النظام الاشتراكي، أما النظام الرأسمالي فهو النظام الذي تعيشين فيه وتعرفين بعض مساوئه..
- أليس هناك أنظمة أخرى؟..
- هذان هما النظامان الرئيسيان اللذان يصطرع حولهما العالم..

وقلبت سلمى صفحات الكتاب وقالت:

- سأحاول أن أفهمه..

ورجاها أحمد أن تقرأ الكتاب في خفية لأن تداوله ممنوع، فثارت نفس سـلمى وقالت متحدية:

- ومن يجرؤ أن يمنعني من حرية الفكر؟..

فابتسم أحمد وقال:

- في بعض البلاد تعتبر حرية الفكر جريمة كبرى. إنك لم تجربي بعد اضـطهاد مرتكبيها فلا تسيئي إلينا!..

والتفت في تلك اللحظة إلى إقدام التي كانت تصغي إلـى المحـاورة باهتمـام وقال:

- أقلّ ما يفعلون أنهم يطردوننا..

فأطرقت إقدام دون أن تجيب بشيء..

وحين خرج أحمد قالت إقدام:

- إن أحمد كان محرر صحيفة حرة في العراق، ولقد سجن وعذّب حتى نزف، فسمحت الحكومة لأهله أن يبعثوا به للاستشفاء في لبنان، وحرمته من الجنسية العراقية..

جلست زينب على سرير إقدام وأخذتا تلعبان الورق وتصغيان لبرنامج "ما يطلبه المستمعون"، بينما كانت سلمى غارقة في قراءة كتاب لينين.. وحين رفعت رأسها عن الكتاب لحظة وقد استعصى عليها فهم بعض العبارات، لمحت الفتاتان تتضاحكان وتتغامزان عليها، فابتسمت وأشارت بيدها مستفهمة عما أضحكهما.. وبدا أن زينب تريد أن تصرح بشيء وإقدام تمنعها.. وانتصرت إرادة زينب فأومأت إلى سلمى أن تأتي إلى سرير إقدام لتخبرها بشيء.. فقفزت سلمى إليهما بينما كان المذياع يردد أغنية لعبد الوهاب "الصبا والجمال"..

وهمست لها زينب وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى:

- ألا تعرفين فاضل؟..

وأجابت سلمى دهشة:

- أبدا!.. من هو هذا؟..

- ذلك الشاب العراقي الذي يرتدي عباءة سوداء مقصبة..

- لم أنتبه إليه.. ولكن ما شأني به؟..

- هذه الأغنية لك.. ألم تسمعي اسمه بين طالبي الأغنية؟.. إنه يحوم حولك منذ مدة، ويريد أن يخطبك من أهلك..

- ولكنني مخطوبة.. لا يمكن أن أفكر بإنسان غير خطيبي.. وقالت إقدام:

- لقد أخبره أحمد بذلك ولكنه لم يقتنع ولم ييأس فذهب إلى بيروت، وحفر أول حرف من إسمك على مشبك ماسي ليهديك إياه..

- هكذا!.. ودون أن يعرف رأيي؟.. وقالت زينب:

- إنه مقتنع أنك لن ترفضيه.. غني كبير!..

- سخيف مغرور..أيحسب أنه بالغنى وحده يفتح كل القلوب؟.. وقالت إقدام:

- ولقد قال له أحمد أن سلمى تختلف عن باقي الفتيات ولا يمكن أن ترضى به حتى ولو لم تكن مخطوبة..

وعارضتها زينب:

- ليس هناك من لا تتمناه.. إن سنية كادت تنتحر لأجله.. إن أحسن البيوت في العراق تفتح له أبوابها..

وقالت إقدام محتجة:

- إنه جاهل عربيد ماجن لا أخلاق ولا ضمير له.. خدع فتـاة وأوهمهـا أنـه سيتزوجها، ثم تخلى عنها فكادت أن تنتحر، لا لأجله كما تقول زينب ولكن خشية من أهلها، وخجلا من المجتمع بعد أن لوث سمعتها وأهدر شـرفها.. إنـه وغـد كبير..

وعارضتها زينب:

- إن الرجل لا يعيبه شيء، والذنب ذنبها أنها وهنت أمامه.. فانبرت لها سـلمى وإقدام معا: ماذا؟.. وأردفت سلمى:

- إن التصرف النذل تصرف نذل سواء صدر عن المرأة أو الرجل.. لقد مضى عهد تسلط الرجل.. في مثل هذه القصة أرثي للفتاة، لطيبة قلبها وجهلهـا وقـسوة المجتمع عليها.. ولكنني أحتقر الرجل لنفسه اللصة النذلـة.. لقـد سـرق للفتـاة المسكينة المستقبل، أحلام الزوجية والأمومة، سرق لها الحياة نفسها.. فأية حقـارة تعادل هذه الحقارة؟..

ووافقتها إقدام ثم أضافت:

- حتى في هذا المصح لم يكفّ عن مغامراته الدنيئة.. قبل أن يفكـر فيـك، تخلى عن غرام مونيك الأرمنية.. أغراها وهي امرأة متزوجة ولها بنـت.. كـان يقابلها في بيروت تذهب هي بحجة زيارة أهلها، ويذهب هو لشراء حاجـات لـه ويلتقيان.. ثم ملّ عشرتها.. ألا تعرفين "مونيك"؟.. إنها تأتي أحيانا إلى المطعم..

وذكرت سلمى مريضة أرمنية كثيرة المشاجرات حتى أن الفتيات الأرمنيـات أنفسهن كن يتحاشين مجالستها أو معاشرتها.. كانت حين تلتقي بسلمى في المطعم تنظر إليها شذرا، وعيناها السوداوان المتقاربتان تشعان حقدا، فظنت سلمى أنهـا بطبعها شرسة سيئة الخلق، ولم تلق إليها بالا ولم تدر أن في تلك النظرة ضـغينة مكتومة بل رغبة في الافتراس:

- إذن هذا هو السبب في نظراتها الحاقدة إلي!.. طمنيها أن لو خلت الـدنيا مـن الرجال لا أفكر بمثل فاضل..

* * *

اقتنعت أليس بضرورة إجراء العملية حين رأت حالتها تتطور يوما بعد يوم.. لقـد قال لها طبيبها في زحلة أنها لا تحتاج في استشفائها لأكثر من شهر فطال الـشهر إلى خمسة عشر شهرا وتحول الضعف البسيط في رئتها اليسرى إلى جرح عميق الغور.. كان يسبب لها النزف من حين لآخر وبهت لونها وبدلت سمرتها الحلـوة بصفرة مشوبة بالزرقة.. ولكن النحول لم يكن يبدو عليها بالرغم أنها خسرت من وزنها ما يقرب من عشرة كيلو.. فإذا ما تزينت ولونت خديها وشفتيها انقلبت إلى إنسانة أخرى شديدة الجاذبية زاخرة بالحيوية..

كانت "أليس" فتاة وقادة الذكاء، حاضرة النكتة والبديهة، تحـب أغنيـة "أبـو الزلف" وتبدي اهتماما بالسياسة المحلية بالرغم أنها لم تعبر يوما باب المدرسـة.. ولا يراها أحد دون أن يظنها فتاة مثقفة، ودون أن يمتليء قلبه بالمرارة لحرمـان مثل هذه الفتاة من نعمة العلم.. وكانت أليس يتيمة، توفي والدها وهـي صـغيرة فعاشت وأمها في بيت خالها المعيل الوحيد.. ولم تستمتع يوما بهنـاء الاسـتقلال والحرية.. كانت تشعر بالغربة وتخجل أن تمد يدا لطعام أو شراب، وكثيرا ما كان يهمل أمرها في بيت كثير الأولاد يتخاطف كل فرد فيه ما يقع تحت بـصره، ولا يحسب لغيره حسابا.. ولو لم تكن الفتاة ذات بنية متينة، ولـولا الهـواء الطلـق والشمس المشرقة في بلادها لأصابها المرض منذ عهد بعيد.. ولكنه تمهل وتحـين فرصة نمو شبابها فأنشب فيها أظافره..

كانت أليس نهبا للقلق من أن يدري أحد بمرضها فينفر عنها المعجبون، وتكسد في سوق الزواج.. وكانت خشيتها الكبرى من العملية أن تترك أثرا في جـسدها ينبيء بمرضها.. هذا عدا أنها وجلة بطبعها ولا تثق بالأطباء أو الدواء..

وكان في بلادها شابان يحومان حولها ويتراوحان في ميزان تفضيلها، تحـب الأول لتوقد ذكائه ولصوته الشجي حين يغني "أبو الزلف" ويسارقها نظرة ملؤهـا الحنان والحب.. وكان الفتى هاويا للصيد، ولكنه لا يجد عملا يستقر إليـه يومـا ويتعطل أياما.. فهو تارة عند نجار وطورا مساعد بناء، وأخرى سائق بـالأجرة.. ولكن كل تلك الأعمال لم تكن تهدئ طموحه فهو يجد نفسه يعمل للغير دوما.. هو يشقى وغيره يأخذ ثمرة أتعابه.. ولو كان لديه رأس مال صغير، أو علم يركن إليه

لكان من الناجحين.. فهو جم النشاط، محبوب خفيف الظل.. ولكن القلـق يـدمر حياته.. إنه عاطفي بطبعه ولقد أحب الفتاة، وعلق عليها آماله ولا يدري الوسـيلة لإعالتها لو تزوجها..

وحين كانت رسائله تصل إلى أليس عن طريق عمها فـي بيـروت، كانـت دموعها تسيل ويختنق صوتها، وتنمق له رسالة حارة لا تحتاج سلمى إلاّ إلى نقلها على الورق.. وأما الآخر فلقد كان مغتربا شارف الأربعين عـاد بثـروة ليـست وافرة، ولكنها تؤمن لها حياة مستقرة، هي التي لم تعرف الاستقرار يوما.. ولكنها مع ذلك لم تشعر نحوه بعاطفة حب، ولم يكن شكله منفرا، كما تبينت سـلمى مـن صورته، غير أن ملامحه لم تكن تخلو من غباء وبلادة..

لم تقطع أليس للرجل خيط الأمل.. فهي تفكر في المستقبل حين تشفى ويخيفها هذا المستقبل.. إنها تعلم أنها لم تعد تحتمل مشاق الحياة.. فاختيارها الفقر يعنـي أنها تختار الموت.. فتجد نفسها تتأرجح بين الحب والاستقرار بالرغم عنهـا ولا تقوى على أن تقول في حقهما كلمة فاصلة، فهي تنتظر الزمن أن يحل لها مشكلتها التي تقلقها في صحوها ومنامها..

كان على أليس أن تجرى عملية قطع الالتصاقات التي تمنع الإبرة الهوائية من أداء عملها في ضغط الرئة.. ولقد أجرتها قبلها الفتاة الأجنبيـة يـولا، وتماثلـت للشفاء.. فتحمست هي ورضيت بإجرائها، غير أن حظ المسكينة كان عاثرا.. لقـد انقطع التيار الكهربائي بعد أن شقّ الطبيب صدرها لإجراء العملية.. ولمـا عـاد التيار بعد لأي وجد الطبيب أن الالتصاقات متشابكة مع عروق القلب، فلـو أنـه أخطأ في التمييز بينها، لأودى بحياة الفتاة.. ولقد زاد في اضطرابه صياحها، فمـا كان منه إلا أن أغلق الجرح دون إجراء العملية..

ولقد نقلت أليس إلى غرفة من غرف المتعبات وأخذت صحتها في التدهور يوما بعد يوم...

* * *